الصدق والواقعية في القصة القرآنية

Truth and Realism in the Quranic Story

أ.د. أمين محمد عطية باشا

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم، جامعة أم القرىٰ ، مكة المكرمة

Abstract

The Quranic story is a strong pillar of the foundations of the Islamic call based on persuasion and heartfelt reassurance which calls for true faith in Allah, His angels, His messengers, His books, and the Last Day of judgement, and it bears elevated ideals in the field of jihad, sacrifice and patience for the sake of calling for truth, guidance to goodness, denial of falsehood and steadfastness. In the face of injustice and tyranny, it is also a fertile field for targeted directives and useful guidance to establish a humane society free from the yoke of imitation and decadence, and that includes explaining the reasons for the strength, weakness, cohesion, dissolution, elevation and decline of nations. For this reason, the Holy Qur'an has taken great care in mentioning the stories, and has given it special attention, for lofty purposes and goals and since the Quranic story was one of the methods that the Holy Qur'an cared about formulating, the orientalists and the enemies of Islam tried to tear the veracity of the Quranic stories by saying that it contradicts history, and they cited baseless and suspicious objections. That is why I decided to present this research in order to show the secret in the care of the Holy Quran by mentioning the stories, and to respond to the suspicions that question the veracity of the Quranic stories. The research article contains abstract, three sections; namely the meaning of the story in the language and the Holy Quran, the attention of the Holy Qur'an to mention the stories, truthfulness and realism in the Quranic story , result of the research and bibliography. And I ask Almighty Allah to benefit us with what He taught us and to benefit from it, and to make this in the scale of our deeds. Ameen.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلي آله وصحبه أجمعين. وبعد

– فإن القصة القرآنية ركيزة قوية من ركائز الدعوة الإسلامية القائمة علي الإقناع العقلي والاطمئنان القلبي بما تدعو إليه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبما تحمل من مثل عليا في مجال الجهاد والتضحية والصبر في سبيل الدعوة إلي الحق، والتوجيه إلي الخير والتنكر للباطل والصمود في وجه

الظلم والطغيان، كما أنها ميدان خصب للتوجيهات الهادفة والإرشادات النافعة لإقامة مجتمع إنساني متحرر من ربقة التقليد والانحلال، وذلك بما تشتمل عليه من بيان أسباب قوة الأمم وضعفها وتماسكها وانحلالها ورفعتها وانحطاطها.

– ولهذا فقد عني القرآن الكريم بذكر القصص عناية فائقة وأولاه اهتماما خاصاً وذلك لأغراض وأهداف سامية.

– ولما كانت القصة القرآنية احدي الأساليب التى اهتم بصوغها القرآن الكريم فقد حاول المستشرقون وأعداء الإسلام أن يشككوا في صدق القصص القرآني وأنه مخالف للتاريخ وأوردوا شبهات واعتراضات لا أساس لها ولا دليل عليها.

– ولهذا رأيت أن أقدم هذا البحث لأبين السر في عناية القرآن الكريم بذكر القصص، والرد علي الشبهات التى تشكك في صدق القصص القرآني، وبيان أن القصص القرآني كله حق وصدق لا كذب فيه ولا افتراء ولا مجال فيه للخيال أو الوهم لأنه من كلام الله تعالي القائل (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)[1].

وقد قسمت البحث إلي مقدمة وثلاثة مباحث :

1- المقدمة وفيها أهمية الموضوع.

المبحث الأول : معني القصة في اللغة والقرآن الكريم.

المبحث الثاني : عناية القرآن الكريم بذكر القصص.

المبحث الثالث : الصدق والواقعية في القصة القرآنية.

– هذا وأسال الله تعال أن ينفعنا بما علمنا وأن ينفع به وأن يجعل هذا في موازين أعمالنا إنه ولي ذلك والقادر عليه (رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)، (رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ).

– وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلي الله وسلم علي سيدنا محمد وعلي آله وأصحابه أجمعين.

المبحث الأول

معني القصة في اللغة والقرآن الكريم

معني القصة في اللغة :

أصل القصة في اللغة: المتابعة، وذلك أن القاص يتبع الخبر بعضه بعضا، قال تعالي "(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ)[2]. أي تتبعي أثره. وقال تعالي "(فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً) [3]. أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر.

والقص : البيان. قال تعالي : "(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) [4]... أي نبين لك أحسن البيان. ومنه قوله تعالي :" (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [5]. وقوله تعالي : "(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) [6].

والاسم منه القص. والقاص من يأتي بالقصة علي وجهها. لأنه يتتبع معانيها وألفاظها. أو هو قاص لانه يقص القصص تباعاً خبرا بعد خبر.

وجمع القاص : قصاص بضم أوله.

وقص الشئ : قطع من باب رد.... واقتصصت الحديث رويته علي وجهه.

والقصة: بالكسر الأمر والحديث والخبر. كالقصص بالفتح، وتجمع علي قصص بالكسر كعنب. وجمع الجمع أقاصيص.

والقصص بالفتح بمعني الخبر المقصوص وضع موضع المصدر حتي صار أغلب عليه[7].

ومما تقدم يتبين لنا : أن القصص معناه المتابعة كما أكد هذا المعني القرآن الكريم. كما أن هذه المتابعة لا تكون إلا عن طريق البيان وسرد الأحداث بصدق وروايتها علي وجهها. ويؤيد ذلك أن القصص بمعني القطع. فأنت حينما تقص الحديث تقطع بصحته. دون زيادة أو نقصان. كما أنه يمكن أن نستدل بهذا المعني اللغوي علي أن القصة لا تكون قصة في أصل وضعها إلا إذا قطع بصحتها. فليس فيها مجال للكذب والخيال.

وبهذا تري أن القصة في أصل اللغة العربية حقيقة واقعة. لأن القاص تتبع الأثر، وأتي به مستوعباً كل وجوه الصحة والصدق فيه.

معني القصة في القرآن الكريم :

وعلي هذا المعني اللغوي جاء معني القصة في القرآن الكريم، قال تعالي "(إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ) [8]. أي الخبر الصادق. وقال تعالي :(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ) [9]..(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ) [10]..

فالقصص القرآني في اصطلاح العلماء بالقرآن الكريم هو :

"إخبار الله عما حدث للأمم السابقة مع رسلهم، وما حدث بينهم وبين بعضهم، أو بينهم وبين غيرهم أفراداً وجماعات، من كائنات بشرية أو غير بشرية، بحق وصدق، للهداية والعظة والعبرة" [11].

وذلك كقصص آدم ونوح وإبراهيم وموسي وعيسي وداود وسليمان ولقمان وذي القرنين.... إلي غير ذلك من القصص المذكور في القرآن الكريم.

أما حكاية القرآن عما حدث لسيدنا محمد صلي الله عليه وسلم مع قومه فلا يعد من قصص القرآن وذلك كغزواته وزواجه وما حدث بينه عليه الصلاة والسلام وبين أصحابه. يؤيد ذلك ويدل عليه قوله تعالي:

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ)[12]:

وبهذا تري أن القرآن الكريم أطلق لفظ القصص علي ما حدث به من أخبار الأمم السابقة والقرون الأولي في مجالات الرسالات السماوية وما كان يقع في محيطها من صراع بين الخير والشر والحق والباطل.

فالقصة في استعمالات العرب وفي مفهوم القرآن الكريم تختلف عن القصة بالمعني الأدبي الحديث. وتلك حقيقة لا يماري فيها إلا مكابر، "وإذا كان الأدباء اليوم ينتزعون من الخيال أقوالا ويقولون أنها قصة فذلك أمر لا يعرفه العرب، ولا يجري علي ألسنتهم، وصح لنا أن نطلق عليها أساطير مادامت لم تقع"[13].

ذلك أن القصة الأدبية في القديم وفي الحديث لم تقف عند الحقيقة التاريخية وحدها بل كانت تعتمد علي كثير أو قليل من عنصر الخيال الذي من شأنه أن يلون الأحداث بألوان غير ألوانها وأن يبدل ويغير في صورها وأشكالها، وذلك لكي تبدو الأحداث مختلفة في وجوهها عما ألف الناس أن يروها عليه"[14].

ولعل من الضروري أن أفرق بين القصة بهذا المعني – أعني في القرآن الكريم – وبين الأسطورة.

"فالاساطير الأباطيل والأكاذيب والأحاديث لا نظام لها جمع إسطار وإسطير بكسرهما، وأسطور بالضم وبالهاء في الكل... وسطر تسطيرا ألف الأكاذيب، قال الليث : يقال سطر فلان علينا يسطر إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل، يقال هو يسطر ما لا أصل له أي يؤلف"[15].

وبهذا تري أن الأسطورة لا تطلق إلا علي الأكذوبة من الكلام، وعلي القول الذي لا يعقل كتأليف الأباطيل والخرافات.

أما القصة القرآنية فقد بنيت بناء محكماً من لبنات الحقيقة المطلقة التى لا يطوف بحماها طائف من خيال ولا يطرقها طارق منه[16].

المبحث الثاني

عناية القرآن الكريم بالقصص

القصة كانت – ولا تزال – مدخلا طبيعياً يدخل منه أصحاب الرسالات والدعوات والهداة والقادة إلي الناس وإلي عقولهم وقلوبهم ولعل عصرنا هذا هو خير شاهد علي ما للقصة من سلطان في

الحياة. ومن أثر في تغيير أوضاعها وتلوين وجوهها السياسية والاجتماعية والاقتصادية [17]. فهي ذات تأثير فعال في قيادة الجماعات البشرية في كل وقت وحين.

والدول المتحضرة اليوم تعني عناية كبيرة بأدب القصة، ذلك لما تقوم به من رفع المستوي والفكري والثقافي، والقدرة علي التعبير والمتعة النفسية إذ القصة انعكاس لحياة المجتمع الذي أنتجها[18].

وإذا كان البشر يعنون بهذا النوع من الأدب. مع قصورهم في كشف سمات الواقع الإنساني، أفلا يعني القرآن الكريم —وهو كتاب الإنسانية الأكبر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — بالقصص؟ فيقص علينا حال الأمم السابقة والمجتمعات البائدة التى تتكرر أحداثها مع الزمن. ويصف عللها وأمراضها، ويعالجها بما يكفل لها الاستقرار والفلاح في الدنيا والأخرة.

وفي هذا المبحث سأحاول الإجابة علي سؤال يتردد علي الذهن هو :

لماذا عني القرآن الكريم بذكر القصص ؟ فأقول :

- عني القرآن الكريم بذكر القصص لأغراض أهمها ما يأتي :

1- الدعوة إلي التوحيد، فلم يرسل الله رسولا قط إلا بدعوة قومه إلي توحيد الله عز وجل، ونبذ عبادة ما سواه، قال تعالي (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [19].

وكذلك الدعوة إلي أصول الديانات من البعث والإيمان بالكتب والرسل والأخلاق العامة التي لا تصلح المجتمعات بدونها[20].

2- بيان أن دعوة الرسل جميعاً واحدة، وأن الدين الذي جاء به الجميع واحد من عهد نوح إلي عهد محمد صلي الله عليه وسلم. وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد رب الجميع، فلا عذر لمن يتخلف عن الإجابة ويتبع هواه، وفي ذلك يقول الله تعالي : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) [21].

ويقول تعالي في قصة نوح (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ [22].

وفي شأن صالح عليه السلام يقول تعالي : (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) [23].

وهود عليه السلام يقول الله عنه : (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) (24).

وقال تعالي في شأن شعيب عليه السلام : (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) [25].

3- إثبات الوحي والدلالة علي صحة رسالة سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم، فإن هذا القصص إخبار بالغيب بالنسبة له صلي الله عليه وسلم لأنه أمي لم يقرأ هذا القصص من كتب السابقين. ولم يثبت أنه تعلم أو تلقي شيئاً من ذلك من أحبار اليهود والنصاري، فورود القصص في القرآن الكريم بهذه الدقة والإحكام وبلوغ الغاية في الفصاحة والبيان دليل علي أنه وحي يوحي. وأن الرسول صلي الله عليه وسلم لم يأت به من تلقاء نفسه. وقد نص القرآن الكريم علي هذا في مقدمات بعض القصص أو في التعقيب عليها في نهايتها. قال تعالي : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) [26]. وقال تعالي في قصة مريم : (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) [27].

واقرأ في هذا ما جاء تعقيباً علي قصة موسي عليه السلام في سورة القصص، يقول الله تعالي : (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) [28].(وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) [29].

إن في أخبار الرسول صلي الله عليه وسلم بهذه الغيوب الماضية وهو لم يكن حاضراً ولا مشاهداً ولا مقيما بينهم. مع انتفاء تعلمه ذلك من بشر دليل علي نبوته وإثبات لرسالته صلي الله عليه وسلم.

4- التأسي بأولي العزم من الرسل فيما لا قوه في سبيل الله والدعوة إليه من الأذى والاضطهاد، وهم مع ذلك ثابتون علي مبدئهم القيم ودينهم الحق، لم يعترهم وهن ولا ضعف ولم تفتر لهم همة، ولم يخالجهم شك إلي أن قضي الله أمره وأنجز لهم وعده. فنوح عليه السلام سخروا منه وقالوا له : (قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) [30]. وهود عليه السلام قالوا له : (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)[31]. واستهزأوا بشعيب عليه السلام وقالوا له : (قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) [32]. وعيسى عليه السلام أرادوا أن يقتلوه. قال تعالي: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ) [33].

5- تسلية النبي صلي الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده وتقوية عزيمته رغم ما يلاقي من أذي واضطهاد، فما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله، وإن يكذبوه فقد كذبت رسل من قبله فصبروا علي ما كذبوا. قال تعالي : (وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) (34). وقال تعالي : (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ) (35).

وفي هذا أيضا تثبيت –كذلك – للمؤمنين. وغرس الثقة في نفوسهم وتسليتهم عما أصابهم، بما آلت إليه حال المؤمنين السابقين وحال الكافرين.

6- إعلام النبي صلي الله عليه وسلم وإعلام المسلمين بأحوال الأنبياء والأمم السابقين لتكون لديهم الحجة لمعارضة أهل الكتاب في تحديهم وتعنتهم كما قال تعالي : (قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) [36]. وقد تؤدي هذه المحاجة إلي إيمان بعض الناس[37]. وكذلك دفع تعنتهم في أسئلتهم التى كانوا يريدون بها تعجيز النبي صلي الله عليه وسلم.

7- في القصة القرآنية دلالة علي قدرة الخالق، من حيث الإعطاء والمنع والإنجاء والإهلاك وخلق خوارق العادات كخلق أدم وقصة مولد عيسي عليه السلام وقصة إبراهيم والطير وعصا موسي ويده التى يدخلها في جيبه ثم يخرجها فإذا هي بيضاء للناظرين من غير مرض، وإبراء عيسي للأكمه والأبرص، وإحياؤه الموتي بإذن الله وإخراجه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وكذلك ناقة صالح التى جعلها الله له آية، وإماتة الله رجلا مائة عام ثم بعثه... إلي غير ذلك من الخوارق التى تدل علي قدرة قادرة، وتدبير إلهي حكيم.

8- العظة والعبرة لكل من الفريقين – المؤمنين والكافرين – فقد اشتملت القصة القرآنية علي كثير من العظات والعبر التى تؤثر في النفوس وتدفع الكافرين إلي الإيمان لئلا يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم أو يحل بهم من العذاب العاجل مثل ما حل بقوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط[38]. وتدفع المؤمنين لزيادة التمسك بدينهم,, والتفاني في نشر تعاليمه، وتحمل الأذي في سبيله، لينالوا من النعيم ما أعد لهم ولأمثالهم السابقين، قال تعالي : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ) [39].

9- بيان عاقبة التقوي والصلاح. وعاقبة الشر والفساد كقصة ابني أدم وقصة صاحب الجنتين. وقصص بني إسرائيل بعد عصيانهم. وقصة سد مأرب. وقصة أصحاب الأخدود... إلي غير ذلك من القصص.

10- بيان نعمة الله علي أنبيائه وأصفيائه كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسي وزكريا ويونس وموسي فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتي ويكون إبرازها هو الغرض الأول، وما سواه يأتي في هذا الموضوع عرضا[40].

11- إثبات عقيدة البعث والجزاء ورفع الشك عنها ويبدو ذلك واضحاً جليا في قصة الذي مر علي قرية وهي خاوية علي عروشها : (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [41]. وقصة بقرة بني إسرائيل:

(فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [42]، وقصة أصحاب الكهف : (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا) [43]. وقصة الألوف من بني اسرائيل الذي خرجوا حذر الموت، قال تعالي : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ) [44].

المبحث الثالث

الصدق والواقعية في القصة القرآنية

القصص القرآني كله حق وصدق، لا كذب فيه ولا افتراء. ولا مجال فيه للخيال أو الوهم لأنه من كلام الحكيم الخبير : (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) [45]،(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [46]. ذلك أن من القصص البشري ما يحكي واقعاً ويصور حقائق ثبت وجودها ومنه ما هو نسج خيال مؤلفه. والقصص الخيالي إنما يلجأ إليه من أعوزته الحقائق أو عجز عن تصويرها تعالي الله عن ذلك علوا كبيراً[47].

والحقيقة التى لا ريب فيها أن القصة في القرآن الكريم بنيت بناء محكماً علي الحقائق الثابتة الخالصة من زخرف القول وباطله ونسج الخيال. وأسست علي الحق والصدق والواقع. ولم يكن للخيال أو الوهم أو المبالغة مدخل إليها. قال تعالي : (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [48]. فهو قصة وقعت في غابر الأزمان بأشخاصها وأحداثها وزمانها ومكانها وملابساتها ثم يجئ القرآن الكريم فيقصها أحسن القصص. أسلوبا محكماً. وعرضا معجزاً. وحقا ثابتا. ويصور الحقائق بصدق مصفي من كل شائبة فيها تغيير أو تحريف للحقيقة والواقع[49] : (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً) [50].

هذا. ولما كانت القصة القرآنية إحدي الأساليب التى اهتم بصوغها القرآن الكريم فقد حاول المستشرقون وأعداء الإسلام أن يشككوا في صدق القصص القرآني وأنه مخالف للتاريخ. وأوردوا شبهات واعتراضات لا أساس لها ولا دليل عليها يدفعهم لذلك الحقد والتعصب لمعتقداتهم محاولين بذلك زعزعة ثقة المسلمين في كتابهم المعجز ومصدر دينهم.

وإذا كان هذا الأمر يبدو غريباً من المستشرقين. فإنه يكون أشد غرابة وأعظم خطراً إذا صدر عن غير واحد من المسلمين أو قل الذين ينتسبون إلي الإسلام الذين أخذوا يرددون ما يقوله المستشرقون ويروجون له. وقد تنكب هؤلاء الجادة وضلوا الطريق. إذ ظنوا أن القصص القرآني نمطا من القصص البشري المعاصر. فاتجهوا إلي المقاييس النقدية المعاصرة محاولين تطبيقها علي القصص القرآني متكلفين في ذلك

شتي ضروب المنطق. وقد أغفلوا بذلك عن حقيقة واضحة وهي أن الأسلوب القرآني ينفرد بطابعه الخاص المعجز سواء في القصة أو في غيرها من فنون القول وأن كل محاولة لتطبيق المقاييس المشتهرة عليه لا ترقي إلي تفسير إعجازه الصريح.

ومن هؤلاء الدكتور محمد أحمد خلف الله صاحب كتاب "الفن القصصي في القرآن الكريم" وهذا الكتاب في الأصل كان رسالة دكتوراه أشرف عليها وقدم لها وناضل من أجلها الأستاذ أمين الخولي وقال في مقدمة الطبعة الثالثة لها مادحاً الدكتور خلف الله ومثنيا عليه "أنه من الذين آمنوا بالعلم، وآمنوا بالحق، وآمنوا بالتطور... فمضوا يدرسون القرآن كتاب العربية الأكبر دراسة فنية متجددة مستفيدين من التقدم الفني والعقلي والاجتماعي، فانتهوا بذلك إلي أن قدموا التفسير الأدبي خطوة للأمام بعيدة الأثر، خطوة حسبها أن تمنع ازدواج الشخصية في المتدين، ذلك الازدواج الذي يتجلي حين يدين مثقف بالإسلام واثقا موقنا، ثم يدرك ويقرر: أن الإسلام وكتابه القرآن، يحدث عن الأشخاص والواقعات بما يشاء، ويستغلها في ترويج الدعوة الإسلامية كما يشاء دون أن يكون ذلك حقا ملزماً للمؤمنين.... [51]

والحق أن هذه الرسالة مليئة بالأخطاء والأباطيل والطعن في القرآن الكريم وقصصه.

وقد تلقفها بعض المستشرقين ومن علي شاكلتهم بالإعجاب والتقدير "ورأوا فيها محاولة جديدة للنهضة بالتفسير وجهداً جاداً لتخليص القصص القرآني من العنصر التاريخي. وتأثراً مؤكداً بالنظريات الغربية في علم النفس والاجتماع[52].

وقد قوبلت هذه الرسالة في مصر بما تستحق من نقد وتفنيد. وتصدي لها العلماء يردون علي ما فيها من افتراءات وضلالات.

حتي إنهم حكموا عليه بالكفر والزندقة – وصارت – هذه الرسالة مثلا علي ضلال المنهج الذي يتبعه التخبط في نتائج غير مسددة[53].

هذا وقد عرض كثير من العلماء لآراء المؤلف عرضا دقيقاً أتوا فيه علي كل ما احتواه الكتاب من آراء وأفكار وبينوا الخطأ المنهجي الذي وقع فيه المؤلف وترتبت عليه بعد ذلك كثير من أحكامه المتعسفة وآرائه الشاذة التى تنفي الصدق عن أخبار القرآن الكريم. ذلك أنه أخضع القصة القرآنية لمقاييس القصة الأدبية بمفهومها العصري الحديث. ونسي أو تناسي أن القصة في اصطلاح القرآن الكريم[54]. تختلف عن القصة في الاصطلاح الأدبي الحديث "فنقطة الخطأ الأولي في منهج المؤلف تكمن في هذا الخلط بين القصص باصطلاحه القرآني الأصيل. وبين القصص باصطلاحه الأدبي الحديث. وإنه لمن التعسف أن نحمل كلمات أي نص قديم ظلالا جديدة لا تصدر عنها ولا تمت إليها بصلة[55].

إن الحقيقة التي لا شك فيها أن مقاييس النقد القصصي تتغير وتتبدل وذلك مما يجعلها ذات خطر كبير إذا طبقت علي القرآن الكريم الذي يتغير إعجازه ولا تختلف روعته باختلاف الأجيال والأزمان.

والدليل علي ذلك أن الدارسين للقصة مكثوا زمنا طويلاً يعتقدون أن القصة المثلي تتكون من الغرض والعقدة والحل. مستشهدين لذلك بما عرفوا وقرأوا لأساطين القصاص في الشرق والغرب "ثم جد وقت ينكر أن تلتزم القصة بهذا المنهج التقليدي. إذ ليس من الضروري أن يكون لكل قصة عقد تتطلب الحل عند قوم. كما أنه ليس من الضروري عند قوم أخرين أن يكون لكل قصة حل نهائي يتم به الفصل الأخير. إذ أنه من الجائز فنيا لدي هؤلاء أن تظل النهاية مفتوحة غير منغلقة ليذهب كل قارئ في تصويرها كما يشاء، فماذا نصنع إذا عمد ناقد في زمن ما إلي قصة قرآنية ليبحث عن خطواتها الثلاث محاولا اكتشافها ولم يهتد إلي خطوة منها قد يراه ناقد لاحق لا يقل عنه في مرتبته الفنية شيئاً غير ذي بال.

إن القصة القرآنية حينئذ ستكون جيدة عند ناقد دون ناقد وفق تطور مقاييسنا النقدية[56].

وبذلك تصبح القصة القرآنية ممتازة في عصر ومنحدرة في عصر سواه تبعاً للمقاييس النقدية المتغيرة.

إن القرآن كلام الله ومن عند الله. هذه الحقيقة نحاها الدكتور خلف الله جانباً وساق القرآن سوقا ودفعه دفعا إلي ساحة الفن وحكم فيه مقاييس الفن وأخذه بمعاييره كأي كلام أدبي يصدر من كاتب أو خطيب أو شاعر. فقد استولت عليه هذه الدراسة الفنية للأدب العربي فخيل إليه أنه يستطيع أن يدخل بها علي القصص القرآني. وأن يعرضه عرضا فنياً, فأخطأ المنهج وضل الطريق وقال في قصص القرآن الكريم أقوالاً تنزع عنه صفة الصدق الذي لا ينفك عنه أبدأ.

بل وأكثر من هذا ذهب إلي القول بوجود القصة الأسطورية في القصص القرآني. ونسي أنه أمام نمط من القول لا يخضع لمقاييس فنيه تروج حينا وتكسد حينا آخر.

فقد ذهب إلي نفي الصدق التاريخي في أخبار القرآن الكريم وقصصه. ومن ثم "يصبح العقل الإسلامي غير ملزم بالإيمان برأي معين في هذه الأخبار التاريخية الواردة في القصص القرآني. وذلك لأنها لم تبلغ علي أنها دين يتبع وإنما بلغت علي أنها المواعظ والحكم والأمثال التى تضرب للناس، ومن هنا يصبح من حق العقل البشري أن يهمل هذه الأخبار أو يجهلها، أو يخالف فيها أو ينكرها"[57].

وعلى ذلك فهو لا ينفي وجود القصة الأسطورية في القرآن الكريم. ويعتبرها تجديدا في الحياة الأدبية المكية جاء به القرآن الكريم حين بنى القصص الدينى على بعض الأساطير.

وليست له فى ذلك من الأدلة المقنعة ما يدعم رأيه، فهو لم يعرض بصورة جلية نماذج من القصص القرآني الذى انتفت عنه الواقعية التاريخية، ويثبت له خصائص القصة الأسطورية — إن كان لهذا النوع وجود في القرآن الكريم — بل اقتصر على القول بأن القرآن نفسه، لم يحرص على أن ينفي وجود الأساطير فيه وإنما

حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هى الدليل على أنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم وليس من عند الله، فهو يقول: "وإذا كان هذا ثابتًا فإنا لا نتحرج من القول بأن فى القرآن أساطير، لأنا في ذلك لا نقول قولا يعارض نصا من نصوص القرآن"[58].

"وهنا نجد تعارضًا ملموسًا فى تصويره لموقف المفسرين مما يسميه المؤلف بالقصة الأسطورية في القرآن الكريم، ويكفينا هنا أن نورد عبارتي المؤلف لتوضيح ذلك، فهو يقول مرة "لم يقل واحد من المفسرين بوجود القصة الأسطورية فى القرآن الكريم، بل على العكس نرى منهم كما نرى من بعض المحدثين نفورًا من لفظ الأسطورة ومن القول بأنها فى القرآن ولو إلى حد ما"[59]، ثم يقول مرة أخرى: "القصة الأسطورية إذا من القصص الأدبي الذى نجد من المفسرين من أجاز أن يكون موجودًا فى القرآن الكريم"[60].

هذا وقد استدل الدكتور خلف الله على ذلك بآيات من القرآن الكريم تبين أن مشركي مكة وصفوا قصص القرآن الكريم بأنه أساطير الأولين.

ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

1- قوله تعالى: "وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ"[61].

2- قوله تعالى: "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ"[62].

3- قوله تعالى: "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً"[63].

4- قوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ"[64].

وأنت ترى أن صاحب الفن القصصى حينما أراد أن يستدل على دعواه بهذه الآيات قطع بين الآية وما قبلها وما بعدها من آيات تتصل بموضوع المقولة التى يقولها الكفار في القرآن بأنه أساطير الأولين.

ثم إن هذه المقولة "أساطير الأولين" لا يقصدون منها القصص القرآني وإنما يقصدون القرآن الكريم كله، بل إنهم قالوا فى القرآن ما هو أكثر من هذا فلم اقتصر على هذه المقولة؟ قالوا في القرآن: (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)[65]، وقالوا في النبى صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ)[66]، وقالوا في القرآن الكريم: "بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ"[67].

أليست هذه المقولات وأمثالها تصدر عن موقف واحد إزاء القرآن الكريم كله، لا القصص وحده.

وانظر – مثلا – فى الآية الثالثة التي ذكرها فى استدلاله، تجد أنها انتزعت انتزاعا من بين الآيات السابقة واللاحقة، ومع أنك لو قرأتها فى سياقها منسجمة مع السابق واللاحق تجد – أنها ترد عليه ولا تؤيده: اقرأ: "تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً، وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً، وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً"[68].

أفيكون قولهم "إن هذا إلا إفك افتراه"، ثم قولهم "أساطير الأولين اكتتبها" متجهًا إلى القصص القرآني، أم إلى القرآن كله، وهو الفرقان الذى جاء ذكره فى أول السورة.

ثم إن الآية تحكي قول الذين كفروا فى ذلك ثم تعقب عليه بأن الذى أنزل هذا القرآن إنما هو الذي يعلم السر فى السماوات والأرض، ولا شك أن ثبوت نسبة القرآن إلى الله تعالى ما ينفي عنه قطعًا أن يكون فى قصصه أساطير، وفى هذا أبلغ بيان فى نفي زعم الأسطورة عنه، لأن الذى يعلم حقائق الأمور فى كل شئ لا يجوز له أن يحكى فى كتابه المنزل الأساطير والأباطيل على أنها هي الحق الذى لا يأتيه الباطل، إنما يقع فى هذا العلم والمعرفة من البشر الذين لا علم لهم بحقائق وأسرار الكون.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنه ينبغى تحديد المعنى المراد من قولهم: "أساطير الأولين" فأساطير جمع الجمع لسطر وأسطر. ومفرده سطر وهو الخط والكتابة[69]، ومنه قوله تعالى: "كان ذلك فى الكتاب مسطورًا" [70]، أى مكتوبًا فيكون المعنى: أن القرآن في زعمهم مما كتبه وسطره الأولون، ويؤيد هذا أن الذين زعموا ذلك إنما هم المشركون من العرب.

والعربي كان يتصور الأشياء كما يتوهم علقه الساذج، ولكنه لا يخترع الأساطير حولها مهما كانت عنده هذه الأشياء غامضة معقدة.

ومن هنا جاء قصصه بعيدًا عن الخيالات التى تبدو فى أكثر القرآن الميثولوجي والأساطير الشعبية لدى الأمم الأخرى، كأساطير اليونان والهنود والفراعنة، فلم يكن العرب يعرفون الأسطورة بهذا المعنى حتى يحمل عليه ما حكاه القرآن عنهم"[71].

إنه يكفينا فى الرد عليه قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ "[72].

فإذا كان المضمون التاريخي فى القصص القرآني –كما يزعم – باطل فى الحقيقة ونفس الأمر، ألا يكون هذا معارض معارضة صريحة لمضمون هذه الآية التى تنفي إمكان أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وما قوله في قوله تعالى: "ألم، تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ"[73].

فقد رد الله تعالى على دعوى الافتراء بإثبات أنه هو الحق من الله، فهل يتمشى مع منطق العقل، أو أساليب البيان أن يكون حقا قد احتوى باطلا؟ وهل يصدق عليه وصف "الحق" حينئذ؟

ثم نسأل المؤلف سؤلا: إذا كان الأديب تلجئه الفكرة وضرورات الفن إلى مجاوزة الصدق فى رواية التاريخ فهل يجوز ذلك على الإعجاز القرآني؟ أليس في القرآن ما يدل على القصد إلى الإخبار التاريخي؟ وكيف يفسر المؤلف تلك الآيات التى يبدو فيها القصد إلي الإعجاز التاريخي واضحًا[74]، مثل قوله تعالى: "تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا....."[75].

قوله: "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ....."[76].

قوله: "تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ....."[77].

وقوله: "نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ....."[78].

وقوله: "إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ....."[79].

وقوله: "وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً"[80].

وقوله: "وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً"[81].

وقوله: "نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"[82].

وقوله: "وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ"[83].

وقوله: " وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ"[84].

وقوله: " تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ"[85].

وقوله تعالى: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"[86].

هذه أسئلة لا نجد لها جوابا عند المؤلف فقد تكلف الأدلة الباطلة ليزعم أن اختلاف جزئيات القصة الواحدة فى عدة مواضع تفيد الانطلاق من تحري الصدق، وهو غير صحيح، لأننا لا نرى تعارضًا بين هذا الاختلاف الجزئي وبين الصدق التاريخي، فالتفصيلات كلها قد حدثت وإنما يختار القرآن ما يتصل بالمشهد التى ترد فيه[87].

وبالنظر في الآيات السابقة – وأمثالها كثير في القرآن – نجد أنها قد أثبتت أن القرآن الكريم كله حق نزل من عند الله تعالى وآياته كلها حق وقصصه كله حق، لأن الله تعالى لا يقص إلا بالحق، وهو يقص علينا قصة أهل الكهف بالحق ونبأ موسى وفرعون بالحق ووحيه كله حق وكتابه حق لا يصل إليه الافتراء والكذب

بأي وجه من الوجوه كما قال تعالى: "وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ"(88).

إن الخطأ الذى وقع فيه الدكتور خلف الله وأمثاله أنه حكم التاريخ فيما جاء فى القرآن الكريم من قصص وأخبار واعتمد عليه فلما رأي أن هناك بعض التعارض بين التاريخ والقرآن نفى الصدق التاريخى عن القرآن الكريم.

وإنى لأحيل هؤلاء على ما كتبه العلامة ابن خلدون فى مطلع مقدمته المشهورة عن آفة التواريخ من خلط الحقائق بدسائس من الباطل "وهموا فيها وابتدعوها وزخارف من الروايات الضعيفة لفقوها ووضعوها واقتفي تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وأدوها إلينا كما سمعوها"(89).

فهذا إذن شأن كثير من التواريخ القديمة غير المنضبطة فهى تهمل وتنسى وتحرف وتخدع وتتوهم.

وللأستاذ سيد قطب في هذا كلام يحسن أن أنقله على طوله ففيه خير وفائدة، يقول:

إن الباحث المنصف – علي فرض أنه – لو نظر إلى القرآن الكريم وجرده من كل قداسة دينية، ثم ينظر إليه كمصدر تاريخي بحت فماذا يجد؟؟ يجد أننا لا نملك كتابًا آخر، ولا أثرًا تاريخيا آخر فى تاريخ البشرية كلها توافرت له أسباب التحقيق العلمى البحتة كما توفرت لهذا الكتاب.

فإنه من البديهي، أننا لا نملك فى إثبات صحة الحوادث التي تحدث عنها القرآن أو عدم صحتها، إلا وسيلتين اثنتين، ولكن واحدة منهما ليست قطعية وليس لها من قوة الثبوت ما للقرآن.

أحدى الوسيلتين اللتين فى أيدينا: الأسانيد التاريخية الأخرى فإذا نحن جردنا القرآن من قداسته –كما قلت – فإنه ككتاب تاريخي يكون أقوى إسنادًا من الوجهة العلمية البحتة من كل مرجع تاريخي آخر فى الوجود، فراوي هذا الكتاب هو "محمد بن عبد الله وهو رجل يعترف خصومه قديما وحديثا بأنه رجل صادق... وقد جمع هذا الكتاب بطريقة علمية لا يطعن فيها أحد إلا أفاك متعصب.

ومثل هذا التحقيق العلمي لم يتهيأ لكتاب آخر، لا من الكتب المقدسة ولا من الكتب التاريخية، ولا من الآثار التاريخية أيضًا، فالكتب المقدسة الأخرى قد انقضت فترات طويلة بين حياة أصحابها وعصر تدوينها ولم ترو بالإسناد الذى روى به القرآن، والكتب التاريخية والآثار التاريخية لا ترتفع فوق مستوى الشبهات، وليست هناك حادثة تاريخية واحدة فى تاريخ البشرية تعد يقينا علميا خالصًا.

إذن لا تجوز محاكمة القرآن –ككتاب تاريخي بحت – إلى أي كتاب تاريخي آخر أو أي سند تاريخي ليس له من قوة الثبوت ما لكتاب القرآن.

والوسيلة الأخرى التى بين أيدينا هى العقل، ولست أتردد في التصريح بأن احترام العقل البشرى ذاته يوجب عليه أن يفسح للمجهول مجاله وأن يحسب له حسابه، لا عن طريق الإيمان الدينى، ولكن عن طريق التفكير

العقلى، وإن العقل البشري ليسقط احترامه حين يدعى أنه يعلم كل شيء، وهو لا يعلم نفسه ولا يدرى كيف يدرك المدركات(90).

وعلى هذا فليس فيما تعرفه البشرية من يقين ما يطعن بشيء على ما ورد فى القرآن الكريم، أما الأوهام غير المثبتة فإننا ننزه القرآن الكريم عن أن يقارن بها أو يحتكم إليها فى شيء مما ورد به.

هذا، ومما تجدر الإشارة إليه أن القرآن الكريم جاء بلسان عربي مبين، والشخصيات التى وردت فى قصصه لم يكن لسانها عربيا كنوح وإبراهيم وفرعون، وأصحاب الكهف، ويوسف وأخوته، وامراة العزيز وكل الأنبياء وأقوامهم.... إلى غير ذلك من الشخصيات التى نطق عنها القرآن الكريم بلسان عربي مبين.

ففرعون مثلا نطق عنه القرآن الكريم بمقولات كثيرة كقوله: "وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ"(91).

وقوله: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ....."(92).

وقوله لموسي عليه السلام ممتنا عليه: "قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ"(93).

فإنه مما لا شك فيه أن فرعون لم ينطق بهذه الكلمات العربية وإنما الذى نطق به هو ما تحمله هذه الكلمات من معنى وكذلك كل ما نطق به الأنبياء وأقوامهم.

وأكثر من هذا الجماد والحشرات والطير ينطقها القرآن الكريم بهذا اللسان العربي المبين قال تعالى: "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ"(94).

وقال تعالى: "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"(95)، والهدهد يقول لسيدنا سليمان: "أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ، إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ"(96).

والذى يجب أن يعلم في هذا أن القرآن الكريم في قصصه يحكي مقولات المتحاورين والمجادلين والناطقين فى الحدث الذى يقصه – يحيكها – كما هي فى مضمونها ومفهومها، وإن جاءت بلسان غير لسانهم وبلغة غير لغتهم فالقرآن إذ يحكي عن قوم كانوا يتكلمون بالسريانية – مثلا – وينقل أقوالهم ومجادلاتهم فإنه يعرب عن معاني ألفاظهم ومضامين كلامهم باللغة العربية في ترجمة أمينة صادقة، كاملة لا نقص فيها ولا

زيادة. وهى ترجمة دقيقة لا تحريف فيها ولا تبديل، لأنها من خالق اللغات ومن العليم بدقائق الكون وأسرار الكائنات.

وبهذا ترى أن القصص القرآني كله حق وصدق، ولا مجال فيه للخيال والافتراء والأساطير وصدق الله إذ يقول: "وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ"[97].

مراجع البحث

1- القرآن الكريم.
2- التفسير الكبير الفخر الرازي – دار الكتب العلمية – طهران.
3- روح المعاني للألوسي – إدارة الطباعة المنيرية.
4- تفسير الكشاف الزمخشري – ط. الحلبي.
5- تفسير ابن كثير الحافظ ابن كثير – ط. الشعب.
6- تفسير المنار رشيد رضا – ط. الشعب.
7- في ظلال القرآن سيد قطب – دار إحياء التراث العربي – بيروت.
8- تفسير القرآن الكريم للإمام الأكبر محمود شلتوت.
9- تفسير سورة الأعراف د/ محمد البهي – دار الفكر العربي.
10- البرهان في علوم القرآن بدر الدين الزركشي – ط. الحلبى.
11- الاتقان فى علوم القرآن جلال الدين السيوطي – مطبعة المشهد الحسينى.
12- اعجاز القرآن الباقلاني – دار المعارف.
13- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي – دار الفكر العربي.
14- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني – الحلبي.
15- اللالىء الحسان في عمون القرآن د/ موسى شاهين لاشين.
16- اتجاهات التفسير في العصر الحديث فى مصر د. عفت الشرقاوي.
17- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم د/ محمد محمود حجازي. دار الكتب الحديثة.
18- البيان القرآني د/ محمد رجب البيومي، مجمع البحوث الإسلامية.
19- المعجزة الكبرى – القرآن – الشيخ محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي.
20- التصوير الفني في القرآن سيد قطب – دار الشروق.
21- دراسات قرآنية محمد قطب – دار الشروق.
22- الإعجاز فى دراسات السابقين عبد الكريم الخطيب – دار الفكر العربي.

23- القصص القرآني فى مفهومه ومنطوقه عبد الكريم الخطيب – دار الفكر العربي.
24- سيكلوجية القصة في القرآن الكريم د/ التهامي نفرة – الشركة التونسية للتوزيع.
25- قصص القرآن د/ عبد الباسط بلبول، مكتبة أصول الدين بالقاهرة.
26- الفن القصصى فى القرآن الكريم د/ محمد أحمد خلف الله – مكتبة الأنجلو المصرية.
27- بحوث فى قصص القرآن السيد عبد الحافظ عبد ربه – دار الكتاب اللبناني.
28- قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار – دار إحياء التراث العربي.
29- قصص القرآن محمد أحمد جاد المولى وآخرين، المكتبة التجارية الكبرى.
30- تاج العروس الزبيدي – بيروت.
31- القاموس المحيط للفيروزآبادي – المطبعة التجارية.
32- الصحاح الجوهري.
33- مختار الصحاح محمد ابن أبى بكر الرازي – المطبعة الأميرية.
34- المصباح المنير أحمد بن محمد على المقريزي – المطبعة الأميرية.

الهوامش

([1]) سورة الإسراء آية 105.
([2]) سورة القصص :آية 11.
([3]) سورة الكهف : آية 64
([4]) سورة يوسف :آية 3.
([5]) سورة الأعراف : آية 176.
([6]) سورة غافر : آية 78.
([7]) أنظر تاج العروس صـ 4507، الصحاح جـ 3 ص 1051، مختار الصحاح ص 538، والمصباح المنير ص 693.
([8]) سورة آل عمران : آية 62.
([9]) سورة الكهف : آية 13.
([10]) سورة القصص : آية 3.
([11]) د. عبد الباسط بلبول – القصص القرآني ص 36.

([12]) سورة طه : آية 99.

([13]) د. عبد الباسط بلبول : القصص القرآني ص 36.

([14]) القصص القرآني في مفهومة ومنطوقة ص 39، عبد الكريم الخطيب.

([15]) تاج العروس جـ 1 ص 2946.

([16]) القصص القرآني في مفهومة ومنطوقة ص 40.

([17]) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني في منطوقة ومفهومة ص 7.

([18]) د. عبد الباسط بلبول : القصص القرآني ص 108.

([19]) سورة الأنبياء : آية 25.

([20]) المرجع السابق : ص 109.

([21]) سورة الشوري : آية 13.

([22]) سورة الأعراف : آية 59.

([23]) سورة هود : آية 61

([24]) سورة هود : آية 50

([25]) سورة هود : آية 84.

([26]) سورة يوسف : آية 3.

([27]) سورة آل عمران : آية 44.

([28]) سورة القصص : آية 44.

([29]) سورة القصص : آية 45، 46.

([30]) سورة الأعراف : آية 60.

([31]) سورة الأعراف : آية 66.

([32]) سورة هود : آية 91.

([33]) سورة النساء : آية 157

([34]) سورة هود : آية 34.

([35]) سورة الأنعام : آية 34.

([36]) سورة آل عمران : آية 93.

([37]) د. موسي شاهين : اللآلىء الحسان في علوم القرآن ص 317.

([38]) اللآلي الحسان في علوم القرآن ص 317، د. موسي شاهين لاشين.

([39]) سورة يوسف : آية 111.

([40]) التصوير الفني في القرآن ص 125، سيد قطب.

([41]) سورة البقرة : آية 259.

([42]) سورة البقرة : آية 73

([43]) سورة الكهف : آية 21.

([44]) سورة البقرة : آية 243.

([45]) سورة البقرة : آية 252.

([46]) سورة القصص : آية 3.

([47]) أنظر : اللآلي الحسان في علوم القرآن ص 311، د. موسي شاهين لاشين.

([48]) سورة آل عمران : آية 62.

([49]) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ص 306، د. محمد محمود حجازي.

([50]) سورة الإسراء :آية 105.

([51]) انظر الفن القصصي في القرآن الكريم ص (د) من المقدمة، ط 30.

([52]) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث ص 279، د. عفت الشرقاوي.

([53]) انظر المرجع السابق صـ 279.

([54]) انظر موضوع القصة في اللغة والقرآن الكريم من هذا البحث.

([55]) راجع في هذا : اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، د. عفت الشرقاوي ص 289-305.

([56]) البيان القرآني ص 201، د. محمد رجب البيومي، سلسلة البحوث الإسلامية – السنة الثالثة – الكتاب الواحد والثلاثون.

([57]) الفن القصصي ص45.

([58]) المصدر السابق ص180.

([59]) الفن القصصي في القرآن الكريم ص171.

([60]) المصدر السابق ص180.

([61]) سورة الأنعام: آية 25.

([62]) سورة الأنفال: آية 31.

([63]) سورة الفرقان: آية 4.

([64]) سورة النحل: آية 24.

([65]) سورة المدثر: آية 24.

([66]) سورة النحل: آية 103.

([67]) سورة الأنبياء: آية 5.

([68]) سورة الفرقان: آيات 1-6.

([69]) انظر القاموس المحيط ج2 ص48.

([70]) سورة الأحزاب: آية 6.

([71]) سيكولوجية القصة في القرآن الكريم: ص163، د. التهامي نفرة.

([72]) سورة فصلت: آية 41، 42.

([73]) سورة السجدة: آيات 1-3.

([74]) اتجاهات التفسير في مصر فى العصر الحديث: ص295، د. عفت الشرقاوي.

([75]) سورة هود: آية 49.

([76]) سورة الكهف: آية 13.

([77]) سورة البقرة: آية 252.

([78]) سورة آل عمران: آية 3.

([79]) سورة آل عمران: آية 62.

([80]) سورة الإسراء: آية 105.

([81]) سورة الفرقان: آية 33.

([82]) سورة القصص: آية 3.

([83]) سورة الأحزاب: آية 4.

([84]) سورة فاطر: آية 31.

([85]) سورة الجاثية: آية 6.

([86]) سورة يوسف: آية 111.

([87]) اتجاهات التفسير فى العصر الحديث: ص296، د. عفت الشرقاوي.

([88]) سورة يونس: آية 13.

([89]) انظر مقدمة ابن خلدون ص12 – 54، المجلد الأول، ط 30.

([90]) انظر التصوير الفني في القرآن الكريم ص205، 206، سيد قطب.

([91]) سورة الزخرف: آية 51، 52.

([92]) سورة غافر: آية 36، 37.

([93]) سورة الشعراء: آية 18، 19.

([94]) سورة فصلت: آية 11.

([95]) سورة النمل: آية 18.

([96]) سورة النمل: آية 32، 33، 34.

([97]) سورة الإسراء: آية 105.